الوحـــدة والجريمة

للكاتب الانكليزى القدير لورد لينوه

للأستاذ أبو جاويد أكمل

ولدت انجليزيا ولكنى قضيت الأيام الأولى من عمرى فى بلدة نائية أجنبية ، وليس لى إخوة ولا أخوات ، وقد توفيت والدتى وأنا فى المهد فوجدت فى والدى الرفيق والمعلم والصديق ، وقد كان هذا الوالد الأخ الأصغر لأسرة شريفة وبيت عريق . أما ما حدا به إلى ترك بلدته وأصدقائه وتجنب المجتمعات والإقامة ببلدة كالصخرة فقصة قائمة بذاتها لا دخل لها بقصتى هذه

قلت إن والدى أقام ببلدة كالصخرة لأن بلدتنا لم تكن فى الواقع إلا كذلك : قفار حالكة عرضة للسافيات ، وأشجار عجزت عن النمو ، وعشب جاف ، وتجاويف لم تهتد إليها النجوم ولم يعرف ضوء الشمس مكانها إلا من بعض فجوات بالصخور التى تعلوها ، تجتازها مياه قاتمة مغيرة ترغى وتزبد أثناء سيرها فى طريقها الصخرى . هضاب غطتها الثلوج المتراكمة تأوى إليها الطيور الجارحة وينبعث منها صوتها المرعب المخيف إلى عنان السماء التى أبت أن تتدثر بالسحب على ما بها من شحوب وخوف وهرم . كل هذا ينم على حال تلك البلدة التى سلخت بها الأيام الأولى من حياتى . أما مناخها فلم يغير من المناظر التى تحيط بمنزلى إلا قليلاً وإن كان فى بعض الأحياء الأخرى يحل صيفها المفاجيء الذى لا يعقبه خريف بشهوره الثلاثة لطول شتائها ؛ وربما فى فترات قصيرة الأمد يذوب الثلج فى الأودية وتفيض المياه ويظهر نبات أصفر غريب يفتر ثغره عن بسمات خبيثة موجهة لبعض أجزاء من هذه الصخرة العالية لأمثال هذه المناظر التافهة من تقلبات الفصول . قضيت أيام حياتى عاماً

هو نفس الاعتراض على النظرية المادية السابق

أما (ليبنز Lèibniz) ؛ فيقول إن مذهب الحلول هو مذهب فاسد لا يستند إلى مبدأ ديكارت . ويجب أن تكون هذه المبادئ نفسها فاسدة لأنه لا يمكن أن ينتج الفاسد من الصحيح ، فهو إذن ينتقد مبدأ ديكارت . وقد وضع نظرية تدعى (نظرية المونادMonade) التى لا تقبل أن الجوهر هو إمتداد بل هو فى القوة . فالروح والجسد من طبيعة واحدة ؛ وبما أن النفس مركبة من موناد واحد فالانعكاسات التى تنعكس فيها تظهر جلية ، بعكس الجسد المركب من مجموع المونادز . فالانعكاسات فيه مختلطة وكل موناد ينعكس على الآخر ، فموناد النفس ينعكس على الجسد ؛ وموناد الجسد ينعكس فى موناد النفس ؛ على أن ليبنز لا يستطيع أن يقبل كيف يؤثر جسم فى جسم فيقول : « أخذت أتأمل فى مسألة إتحاد الروح بالجسد ، فلم أجد واسطة تدخل بعض أشياء فى النفس ، وبالعكس لم أدرك أن جوهراً يؤثر فى جوهر ؛ فلا أستطيع قبول تأثير الجواهر بل أقول : لا يؤثر إلا الاله » ومن هنا نشأت نظريته السماة (نظرية التناسق Harmonie pèctablie) التى يقول فيها : إن كل موناد هو عبارة عن عالم صغير يعكس كل العوالم الأخرى ولكن بارادة الاله وحده . ويقول أيضاً : إن الاله خلق النفس أو أى وحدة أخرى حقيقية ؛ بصورة أن كل شكل يتولد داخلها بمضويته بالنسبة إليها : وبصورة متوافقة تماماً مع الأشياء الخارجية ؛ وهذا التوافق مراد منه — أى من قبل الاله — ولعمرى إن نظريات ليبنز لهى خلاصة ما توصل إليه جمهور الفلاسفة فى أمر الروح ؛ ولقد انكشفت له الحجب عن الحقيقة ، وهو الفيلسوف الأوحد الذى يكاد يقترب من الحقيقة الناصعة

محمد حسن البقاعى

فعاماً . وكان والدى مغرماً بالعلوم الطبيعية ومشاركاً فى باقى العلوم فدرس لى كل ما عنده . وكان للطبيعة الفضل فى سد النقص بما أوحت إلى قلبى من دروس عميقة صامتة وهى تكشر عن نابها وتعبس . علمت قدمى الركل وذراعى اللكم ونفثت فى رغباتى روح الحياة وألهمت طباعي الجد لا الهزل . علمتنى كيف أعانقها وإن كان قوامها معوجاً وشكلها غير مغر . أفر من سواها وأهرب من مصادقة رجل وأنثى من ابتسامة أنثى . أهرب من بكاء الطفولة وأخشى من التقيد والآمال وملذات الوجود كما أخشى من اللعنة والعذاب ؛ ومع ذلك كانت لى فى هـذه الصخرة العابسة وتحت هذه السماء الشاحبة متعات لا يهتدى إلى كنهها أهل الحضر الذين يجدون لذتهم في أريج العطر وعبيق الورد ، فما هذه المتعات ؟ إن لها من المتنوعات والأشكال المختلفة عشرات الألوف كما لها من أفياء السرور ، ولكن ليس لها من الأسماء المتداولة إلا اسم واحد ، فما هي هذه المتعات ؟ هى «الوحدة»

مات والدى وأنا فى الثامنة عشرة فانتقلت إلى كنف عمى وأزمعت الرحيل إلى لندن فوصلتها نحيفاً عبوساً مفتول الساعد قوى البنية ؛ بيد أنى فى نظر من حولى كنت وحشاً فى هيئتى وطباعى . كان لهم أن يضحكوا منى ، ولكنى أرهبتهم بصورتى ؛ وكان لهم أن يغيروا من طبعى ، ولكنى أثرت فيهم وألقيت على بهجتهم رهبة فكانوا وجلين منى وإن لم أتكلم إلا نادراً ولم أجالسهم إلا مجلس الغريب الصامت المنقاد . ما من أحد منهم يستطيع معاشرتى ويكون مسروراً أو مرتاحاً . هذا ما شعرت به وقد أبغضهم إذ لم يمنحونى حبهم

مضت ثلاث سنين بلغت فيها سن الرشد ، فطالبت بثروتى واحتقرت الحياة الاجتماعية ، وذبت شوقاً مرة أخرى إلى الوحدة ، فصممت على الرحيل إلى الأراضى النائية الخالية من السكان ، تلك الأراضى التى لم يرجع منها زائر يتحدث عنها ممن طوحت بهم الأقدار فى أحضانها

استأذنت عمى وزوجه وأولاده وبدأت الحج فاجتزت الرمال المحرقة ، وقطعت الفيافى الشاسعة ، حتى وصلت إلى غابات أفريقيا الكثيفة التى لم تطأها قدم ، ولم يشوش صوت إنسان هـذا الجلال المهيب الذى يخيم على وحدتها كما كان يخيم قبل الوجود على العوالم المضطربة . هناك حيث تنمو الفطرة الأزلية وتذبل بغير إزعاج أو تغيير يطرأ عليها من اضطراب ما يحيط بها من العوالم . هناك حيث تنبت البذور أشجاراً تعيش أعماراً لا تحصى ولا تعد ، ثم تتساقط أوراقها ويسطو عليها البلى ويغتربها الفساد ويدركها الفناء . هناك حيث يخطو الزمن المتثاقل لم يشهد تقلباته الهائلة العامتة إلا أسد شارد ، أو أفعوان جسيم ، يكبر مائة مرة تلك البوا التى يباهى الساخرون برؤيتها . هناك تحت الظلال الوارفة التى آوى إليها وقت القيلولة كنت أسمع وقع أقدام كالجند وأصغى إلى وسوسة الأشجار الباسقة وهى تهدم وتهدم ، وأرى من خلال فروع الأشجار الملتفة البهموث عابراً سبيله الوعر وعيناه تتقدان كالجمر وأنيابه البيضاء فى فكه الشرس جائمة براقة كأعمدة من الصوان تشع فى غار . ذلك هو الوحش الذى جعلت له دون غيره هذه الفدافد موطناً ؛ ذلك هو الوحش الذى لم يتبدل من يوم أن عرفت المياه سبيلها فى الكون ؛ ذلك هو الوحش الذي لم تبصره عين آدمى غيرى

تسللت فصول الأعوام لم أحصها عدًّا ، إذ لا أنيس يحببها إلىَّ ، ولا أثر يترسم من أعمال ابن آدم القذرة يبغضنى فيها . أقول كرت الفصول ونضج شبابى حتى بلغت الرجولة وجلل الشيب مفرق بالثغام ، ولم ألبث أن استولى علىَّ ميل دفين لا يقر على حال وناجيت قلبى المذنب أن لابد من نظرة أو عودة إلى عشيرتى

قفلت أطوى الفدافد إلى أن بلغت المدائن فتدثرت بلباس أهلها إذ لم أكن فى البيداء إلا عارى الجسد ، ولما بلغت الثغر أقلتنى سفينة إلى انجلترا كان فيها رجل هو وحده الذى لم يتجنب صداقتى ولم يخش غضبى ، يستولى عليه النزق ، ويملأه الغرور ، ويتيه عجباً كما يختال عادة هؤلاء الذين استوطنوا المدائن ، واتخذوا الكلام غذاء عقولهم . كان طفيليًّا سخيفاً ونسيجاً قذراً من آراء سافلة ، وكان الرعب الشائن هو الخصلة الفريدة التى لم تفارقها نفسه ، فحال أن ترهبه أو تسكته أو تهزمه ؛ يتعقبنى دائماً ويلازمنى كظلى ليس لقوة أن تنزعه منى ، وكلما بصرت به شمرت بدوار ، وكان من هؤلاء الطغام المحتقرين الذين ترتعد الفرائص لرؤيتهم

كنت أقاطعه مراراً كلما خاطبنى . ولكم هممت أن أقبض عليه وأقذف به إلى البحر للحيتان التى كانت تسبح ليل نهار حول السفينة بعيون براقة وأنياب تواقة ، إلا أن نظرات الجميع كانت

متجهة إلينا فكبحت جماح نفسي وعدلت عن ذلك مغمضاً عيني على مضض ؛ وكلما فتحتهما ثانية وجدته بجانبي وصوته الأجش يرن في أذني الكارهة سماعه

في ذات ليلة تنبهت من نومي على صياح الرجال وهم يقسمون فأسرعت إلى سطح السفين وكنا قد ارتطمنا بصخرة فما أروعه منظرا ! إنه كان هائلا . فضوء القمر هادىء والبحر على فيروزته نائم . في وسط هذا السكون الصامت الناعم الذي شمل كل شيء انمحى أثر ثلثمائة وخمسين نسمة من الوجود . لزمت عزلتي لم أساعد أحداً من المغرقين بل ظللت أنظر ، وإذا بصوت كصوت أفعى ينساب إلى أذني فالتفت ورأيت مزعجي وقد انعكس ضوء القمر على وجهه وهو يتمتم كالسكارى وعينه الدابلة الزرقاء تحملق وهو يقول : لا نفترق حتى في هذا المكان

جرى الدم حاراً في عروقي وعزمت على أن أرميه في البحر الذي كان يغمرنا سريعاً ، ولكن خيل إلي أن القمر يرمقني كما ترمقني عين السماء ولم أتجاسر على أن أقتله . ولما كنت لا أستطيع البقاء كي أموت مع المغرقين قذفت بنفسي نحو صخرة وقد طاردني حوت فأرهبته ، وبعد برهة وجيزة كان لديه القدر الكافي لإشباع نهمه سمعت دوياً فصيحات يأس ممتزجة مزعجة ، يأس ثلثمائة وخمسين قلباً سكنت في لحظة . قلت في نفسي وقد داخلني سرور عميق إن صوته لا محالة بين أصواتهم وقد افترقنا . وما وصلت الشاطىء حتى اضطجعت للنوم

وفي صباح اليوم الثاني انفتحت عيناي على أرض أجمل من أحلام الشباب وقد ابتسمت الشمس وأشرقت على أنهار فضية ، ومالت الأشجار بثمار أرجوانية عسجدية ، وتلألأ كاللماس الندى في أرض تحلت بأزهار ذات أريج عبق ممتع ، وقد حلقت عشرات الألوف من الطير بأجنحة براقة امتزجت ألوان قزح بها وطارت من على النبات والأشجار وملأت الجو تغريداً من سرورها . البحر يزأر تحت قدمي لا أثر في جبينه اللامع لتأكل سالف ؛ أما السماء فكانت تدفىء عروقي بأشعتها الذهبية التي لم تعترضها سحب . استيقظت نشيطاً مرحاً وجست خلال هذا المكان الجديد الذي اهتديت إليه فتسلقت تلا ووجدت أنني في جزيرة صغيرة لا أثر لرجل فيها ، فارتاح قلبي وصحت طرباً لما رأيت أني سأكون وحيداً مرة أخرى ، ولكني لم أكد أنحدر من التل وأصل إلى نهايته حتى لمحت رجلاً يقترب مني . نظرت إليه فارتاب ، قلبي ثم دنا مني فاذا بالبغيض المضطهد يقف أمامي بعد أن نجا من الغرق ! لقد عاد بتمتمته وعينه البراء . ، وما لبث أن طوقني بذراعيه فشعرت بأن أفعى تحتضنني وقال بصوت أجش خشن : مرحى مرحى ! سنبقى معاً أيها الصديق

فنظرت إليه وأنا مقطب الجبين لم أتلفظ بكلمة ، وكان بجانب الشاطىء غار كبير فقصدته ودخلت فيه وهو يتبعني قائلا : سنعيش في هناء هنا لا نفترق إلى الأبد . فارتعشت شفتي وانقبضت يدي.

قد انتصف اليوم وغلبني الجوع فخرجت واصطدت غزالاً وشويت جزءاً منه على نار من أخشاب عطرية فأخذ الرجل يأكل ويزدرد ويقهقه ، وتمنيت لو غص بالعظام . ولما انتهى قال ليس لدينا هنا إلا النذر اليسير من الانشراح ، بيد أني لم أزل محافظاً على صمتي ، وأخيراً تمدد في ركن من الغار ونام ، فنظرت إليه ورأيت نومه عميقاً ثم خرجت ودحرجت حجراً كبيراً عند باب الغار واتخذت سبيلي إلى الجزء المقابل من الجزيرة . وجاء دوري في الضحك ووجدت غاراً آخر وهيأت فراشاً من العشب والأوراق، ومن الأخشاب صنعت منضدة ، وتطلعت من فوهة الغار فرأيت البحار العريضة أمامي وقلت الآن سأكون منفرداً . ولما أقبل اليوم الثاني خرجت مرة أخرى واصطدت جدياً وعدت به وجهزته كما سبق . ولما كنت غير جائع لم أستطع تناول الطعام وهمت على وجهي في أنحاء الجزيرة ، وعند عودتي كانت الشمس قد غربت فدخلت الغار ، فجلست على فراشي ؛ ولكن بجوار منضدتي كان الرجل الذي ظننت أني دفنته حياً بالغار الأول . وما إن وقع نظره عليّ حتى ضحك وألقى بالعظمة التي كان ينهشها وقال : آه لقد عولت على أن تعلمني خدعة نادرة ، ولكن بالغار نفقاً لم تفطن إليه وقد خرجت منه للبحث عنك ، وهذه مسألة هينة ، لأن الجزيرة صغيرة ، أما وقد تقابلنا فلا فراق بعد

فقلت : قم واتبعني . ففعل ، وما ترك من الطعام كان قذى في عيني لأنه مد إليه يده ، وأخيراً فكرت أأزرع ليحصد هذا المخلوق ؛ وشعرت بقلبي وقد تحجر

صعدت إلى صخرة عالية وقلت : انظر حولك وتطلع إلى هذا الجدول الذي يشطر الجزيرة فستقيم في شطر وأقيم في الآخر. ومن

الحال أن تجمعنا بقعة واحدة أو يضمنا خوان ، فقال : لا يتأتى ذلك إذ ليس في مقدوري أن أصطاد الغزلان أو أقتنص الجديان . وإذا لم تسعدني بالغذاء فسأموت جوعاً. قلت : ألا توجد فاكهة وطيور تستطيع اقتناصها ، وسمك يقذف به البحر ؟ فقهقه وقال : لا أهواها كما أحب لحم الجديان والغزلان . فقلت : افهم الآن وانظر إلى هذا الحجر الساكن من الشاطئ الثاني لهذا الجدول . سأترك لك كل يوم عنده جدياً أو غزالاً حتى تنال من الطعام ما تشتهي ، ولكن إذا اجتزت هذا الجدول ودخلت في ملكي فمن المؤكد أني سأذبحك . نزلت من الصخرة وأرشدت الرجل إلى شاطئ الجدول ، فقال : لا أعرف السباحة ، فحملته على كتفي واجتزت الجدول ووجدت له غاراً وهيأت له فراشاً ومنضدة كما صنعت لنفسي ، ثم تركته ، ولما حاذيت شاطئ الجدول ثانية كدت أطير من الفرح ورفعت صوتي قائلاً : سأكون الآن وحيداً

مر يومان وأنا منفرد ، وفي الثالث خرجت للقنص وكان وقت القيلولة وأعياني التعب حينما عدت ؛ وإذ دخلت مغارتي وجدت الرجل منطرحاً على فراشي وقال : ها ، ها . أنا هنا لقد سئمت الوحدة في منزلي وجئت لأعيش معك ثانية . فعبست وقطبت ما بين حاجبي وقلت : من المؤكد أني ذابحك . وجذبته من فراشي بذراعي وأخذته في الهواء الطلق ووقفنا سوياً على الرمال قريباً من البحر العظيم . استولى عليّ الخوف وداخلني ذعر من السكون الشامل الذي يخيم على الوحدة مع أني لا أبالي بالناس لو أحاطوا بنا آلافاً لذبحته أمام أعينهم . وما راعني إلا أننا وحيدان في الصحراء لا ثالث معنا إلا الله . أرخيت عنان قبضتي ، وقلت له : أقسم لي بأنك لا تضايقني بعد ، وأنك تحافظ على حدود منازلنا ولا تجتازها وأنا أعفو عنك . فقال : لا أستطيع القسم ، وخير لي أن أموت في الحال من أن أفارق وجه آدمي صبوح ولو كان عدواً لي . ولهذه الكلمات عاودني حنق فطرحته أرضاً ووضعت قدمي على صدره ويدي في عنقه ، فحاول الخلاص برهة ، ثم كان جثة هامدة . تولاني الخوف على أثر ذلك ؛ ولما نظرت إلى وجهه ظننت أنه عاد إلى الحياة وخيل إلي أن عينه الذابلة الزرقاء ترنو إلي ، وأن ابتسامته الخبيثة لم تفارق شفتيه ، كما أن يديه اللتين كانتا قابضتين على الرمال في حشرجة الموت امتدتا نحوي فضغطت على صدره مرة أخرى وحفرت حفيراً بجانب الشاطئ ، ووارته التراب وقلت : صرت الآن وحيداً

هنا تجلت لي المعاني الحقيقية للوحدة والكآبة ولعدم الاستقرار وللعزلة ، فارتعشت وترنح كل عضو من هيكلي الجبار كأني طفل ترتعد من الظلام فرائصه ، وقفَّ شعر رأسي وتقلصت عضلاتي ، ولم أستطع البقاء في هذه البقعة دقيقة واحدة ، ولو عاد إلي فيها شبابي . غادرتها هرباً وجبت هذه الجزيرة ، وكلما يممت شطر البحر اصطكت أسناني واشتقت إلى صحراء شاسعة لا نهاية لها أتوارى فيها إلى الأبد

عند الغروب عدت إلى مغارتي وجلست في زاوية من الفراش وأخفيت وجهي بكلتا الراحتين ، وتوهمت أني أسمع ضوضاء فرفعت بصري . ولعمري لقد رأيت الرجل الذي أجهزت عليه ودفنته مقيماً بالطرف الثاني من الفراش

هناك على بعد ست أقدام مني كان جالساً يشير إلى رأسه وينظر بعين شاحبة ويقهقه . وليت الأدبار من الغار ودخلت في غابة واستلقيت ، ولكن هناك على بعد ست أقدام مني كان وجه ذلك الرجل أيضاً

أيقظت شجاعتي وخاطبته ولكن لم يبد جواباً . حاولت القبض عليه فأفلت وكان على بعد ست أقدام ، وجهه دائماً أمامي خررت على الأرض ساجداً وغطيت وجهي بأديمها وآليت لا أرفع رأسي حتى يحين الليل وينسدل الظلام

وتنشد قمت وعدت إلى الغار واضطجعت في فراشي ، فنام بجانبي الرجل ، فغضبت وحاولت أن آخذ بتلابيبه فلم أتمكن

أخيراً أغمضت جفني ورقد بجانبي . مرت الأيام والحال لا تتغير في الداخل ولا في الخارج ، في المنزل وفي الفراش ، في القيام وفي الرقاد ، بالليل أو أثناء النهار . هناك في طرف فراشي وعلى بعد ست أقدام لا أكثر ولا أقل كان الميت الشاحب

وما كدت أنظر إلى الأرض الجميلة والسماء الصافية وإلى هذا الصاحب المخيف حتى قلت : لا أعيش وحيداً بعد ذلك ، فضحك الرجل بملء شدقيه . رست في النهاية سفين فحييتها وأقلتني وما وطئت قدمي سطحها حتى ظننت أني بمنجى من مزعجي ، ولكن سرعان ما رأيته يعتلي سطحها ، واجتهدت عبثاً أن ألقيه في اليم ، ولكنه كان بجانبي دائماً يأكل مني وينام كسابق عهده

وصلت إلى مسقط رأسي واندمجت في الزحام . شهدت الولائم وسمعت الألحان ، جعلت ثلاثين رجلاً يجالسون مني وظللت أراقبه